سلسلة مطويات شبكة بينونة

الابتلاء

لا يزيد أهل الصِّدق إلا نقاءً وصفاء

الشيخ
د. أحمد بن مبارك بن سلمان الزروعي

www.baynoona.net
@Baynoonanet
@BaynoonanetUAE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، نحمده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَلَى ما منَّ وتفضَّل علينا بالنعم الكثيرة، والآلاء الغزيرة، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهَ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

ضمن هذِه السلسة الَّتِي هي بعنوان «مسائل إيمانية، وقيم أخلاقية».

أود أن أعرض لكم اليوم مسألة جدًّا مهمة، وهي: أنَّ الدنيا دار ابتلاء.

الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يبتلي فيها النَّاس بالخير والشر، يبتلي فيها النَّاس ليرى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أعمالهم: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾ [الملك:٢]، وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ «هذه الدنيا حلوة خضرة، وأنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون»[1]، كيف يعمل الإنسان في هذِه الدنيا، مع وجود مغريات، ومع وجود ميول نفسٍ لتلك المغريات ومع وجود شيطانٍ يحثُّ ويؤزُّ الإنسان لفعل تلك المغريات، ويثَّقل عليه الطاعات، فحُفَّت الجَنَّة بالمكاره، وحُفَّت النَّار بالشهوات.

وتعلمون جميعًا وَلَا بُدَّ أن يكون ذلك في القلوب يقينًا: أنَّ ما منا أحدٌ في هذِه الدنيا إلَّا وهو يتقلَّب بين فرحٍ وحزنٍ، بين صحةٍ ومرضٍ، بين غنى وفقر، شبابٍ وهرم، وهكذا، هو بهذه الدنيا يتقلَّب، فعند هذِه التقلبات لَا بُدَّ أن نحافظ عَلَى ثلاثة قيم، هذِه القيم إن توفرت في الإنسان؛ كانت له عنوان سعادة، إن توفرت قيمة الصبر والشكر والاستغفار، إن كان عند الابتلاءات والمصائب صابرًا، وعند النعم والرخاء

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٧٤٢).

شاكرًا، وعندما يقع في شيءٍ من الذنوب مستغفرًا تائبًا، فاعلم أنك حزت عنوان السعادة.

وسأذكر لكم قصة، وبهذه القصة يتبيَّن حال الإنسان في الابتلاء وفي الرخاء:

يقول أبو هريرة ﷺ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ ثلاثةً مِن بني إسرائيلَ: أبرص وأقرع وأعمى، فأراد الله أن يتبليهم».

﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] لَا بُدَّ من الابتلاءات، «فأرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ملكًا، فأتى الأبرص، فَقَالَ الملك للأبرص: أي شيءٍ أحب إليك؟» قَالَ -لاحظ- «قَالَ: لونٌ حسن، وجلدٌ حسن، ويذهب عني الَّذِي قد قذرني النَّاس» هو الآن في ابتلاء، برص، ولم يكن يتمنَّى شيئًا إلَّا أن يعافيه الله من ذلك المرض، فمسحه الملك، فذهب عنه قذره، فرجع إليه لونه بأحسن لون، وأعطي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا، وَقَالَ له الملك: أي شيء أحب إليك من المال؟ فَقَالَ: «الإبل» يحب الإبل، قَالَ: «فأعطي ناقة عشراء، فَقَالَ: بارك الله لك فيها».

قَالَ: «فأتى الأقرع، فَقَالَ: أي شيءٍ أحب إليك؟» ماذا يتمنى الأقرع في هذا الموقف؟ قَالَ: «شعرٌ حسن، ويذهب عني الَّذِي قد قذرني النَّاس، فمسحه فذهب عنه، وأعطي شعرًا حسنًا، قَالَ الملك: فأي المال أحب إليك؟ قَالَ: البقر، فأعطي بقرة حاملا، فَقَالَ: بارك الله لك فيها».

قَالَ: «فأتى الأعمى، فَقَالَ: أي شيء أحب إليك؟ قَالَ: أن يرد الله إليَّ بصري» تأملوا -حَفِظَكُمُ اللهُ- الأبرص لمَّا قيل له: أي شيء أحب إليك؟ قَالَ: لون حسن وجلد حسن،

والأقرع قَالَ: شعر حسن، الأعمى ولعله أشدهما ابتلاءً لاحظ العبارة الَّتِي قالها: «أن يرد الله إليَّ بصري»، فلاحظ هنا جانب التَّعَلُّق بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قَالَ: «فأبصر به النَّاس، فمسحه فرد الله إليه بصره، قَالَ: فأي المال أحب إليك؟ قَالَ: الغنم، فأُعطي شاة والدًا، فأنتج هذان وولد هذَا، قَالَ: حَتَّى كان لهذا واديًا من الإبل، ولهذا واديًا من البقر، ولهذا واديًا من الغنم» يعني: أحبتي -حَفِظَكُمُ اللهُ- المدة طالت، فأنتج الإبل وأنتجت البقر وأنتجت الغنم، حَتَّى كثرت وصارت مثل الوادي من كثر النتاج، وَهذَا يدل عَلَى طول المدة.

قَالَ: «ثُمَّ إنه أتى الأبرص» يعني الملك أتى الأبرص «في صورته وهيئته» أتى عَلَى صورة من؟ أتى عَلَى صورة الأبرص، يعني: أتى عَلَى صورته بصورة رثَّة، فقير، أبرص، «فَقَالَ للَّذِي كان أبرصًا: رجلٌ مسكين، انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثُمَّ بك» يعني: ساعدني، «أسألك بِالَّذِي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال؛ بعيرًا أتبلَّغ عليه في سفري» لاحظ هنا السؤال بالجلد الحسن، يعني: أسألك بِالَّذِي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن، تذكيرًا له بأنه كان في يومٍ من الأيام ماذا؟ أبرص، وطلب منه من المال الَّذِي هو عنده وادٍ منه بعيرًا واحدًا، فَقَالَ الَّذِي كان أبرصا: «الحقوق كثيرة» يعني: أنا عندي حقوق كثيرة، ولا أستطيع أن أعطيك بعيرًا، فذَّكره الملك قَالَ له: «كأني أعرفك، ألم تكن أبرصًا يقذرك النَّاس، فقيرًا فأعطاك الله؟» هنا ذكَّره بأنك في يوم من الأيام أنت كنت في هذِه الحالة، وَالَّذِي أعطاك هو الله، فَقَالَ الأبرص جاحدًا لنعمة الله، ومزدي نعمة الله إلَى غير الله: «إنَّمَا ورثت هذَا المال كابرًا عن كابر» ما ردَّ النعمة إلَى الله سُبْحَانَهُ،

فَقَالَ له الملك: «إن كنت كاذبًا فصيَّرك الله إلَى ما كنت» يعني: إذا كنت كاذبًا في كلامك هذَا وموقفك هذَا؛ فسيصيرك الله إلَى ما كنت قبل، وهو كان ماذا؟ أبرصاً فقيراً.

«ثُمَّ أتى الملك إلَى الأقرع في صورته» يعني: عَلَى صورة رجل أقرع، فَقَالَ له: «أسألك بِالَّذِي أعطاك الشعر الحسن بقرة أتبلَّغ فيها في سفري، فَقَالَ له الأقرع: الحقوق كثيرة، وَقَالَ له الملك: وكأني أعرفك، ألم تكن أقرعًا يقذرك النَّاس، فقيرًا فأعطاك الله؟ قَالَ: لا، إنَّمَا ورثت ذلك كابرًا عن كابر، فَقَالَ له الملك: إن كنت كاذبًا؛ فصيَّرك الله إلَى ما كنت».

«ثُمَّ أتى الملك الأعمى في صورته وهيئته» في صورة رجلٍ أعمى وهيئة رثَّة أنه فقير، فَقَالَ له: «رجل مسكين وابن سبيل، انقطعت بي السبل، فلا بلاغ لي اليوم إلَّا بالله ثُمَّ بك، أسألك بِالَّذِي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلَّغ بها في سفري» لاحظ الجواب: قَالَ الأعمى الَّذِي كان أعمى: «قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم شيئًا أخذته لله» ما أجمل الكلام! يقول له: «خذ ما شئت ودع ما شئت» لا أمنعك من شيءٍ أخذته لله، وقد أعطاه الله، فالمال مال الله، وَالَّذِي أعطاه إياه الله، وهو سيعطيه ذلك لله، فَقَالَ الملك: «أمسِك مالك، فَإِنَّمَا ابتليتم، فقد رَضي الله عنك وسخط عَلَى صاحبيك» [٢].

لاحظوا -حَفِظَكُمُ اللهُ-: الابتلاء الَّذِي مرَّ به الأقرع والأبرص والأعمى، لاحظوا هذِه المحنة الَّتِي مرَّت بها، وانظروا إلَى النتائج، لا تنظروا إلَى اليوم ماذا سيحدث، لكن انظروا إلَى العاقبة، انظروا إلَى الخواتيم، جمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأعمى بين نعمتين، وجمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للأبرص والأقرع بين ألمين، تأمَّلوا: الأقرع والأبرص

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٤٦٤)، ومسلم في صحيحه (٢٩٦٤).

كانا في ابتلاء مرض، ثُمَّ أعطيا مالًا، ثُمَّ ردهما الله إِلَى ما كانوا عليه من قبل، فجمع له بين الألم الأول والألم في الختام، وألم فقد النعمة بعد ذوقها أشد، أما الأعمى فجمع الله له بين حسنيين ونعمتين، فكان بفضل من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذاق نعمة البصر والغنم، وثبتت النعمة عنده وما زالت.

لذلك هذِه النعم لَا بُدَّ أنْ تُقيَّد بالشكر، والابتلاءات لَا بُدَّ أن تُقابل بالصبر، وليس ذلك لأحدٍ إلَّا للمؤمن، أصل هذِه السعادة وَهذَا الثبات في هذِه المحن الإيمان.

أيضًا نستفيد من هذِه القصة فائدة مهمة جدًّا، وقيمة جدًّا مهمة: أنَّ الابتلاءات لا تزيد المعادن الطيبة إلَّا صفاءً، الابتلاءات والنعم والمصائب لا تزيد أهل الطيب إلَّا طيبًا، ولا تزيد أهل الخير إلَّا خيرًا، ولا تزيد من كان معدنه طيبًا إلَّا نقاءً وصفاءً، كالذهب، لا يزيده الإحراق إلَّا صفاءً، أمَّا من كان طبعه غير مستقيم، أو غير طيب، وكان معدنه خبيثًا -نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ-؛ فإنه لا تزيده الابتلاءات إلَّا خُبثًا وقُبحًا إلَّا أن يشاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى له الصلاح والهداية.

أيضًا من القيم المهمة الَّتِي نحتاجها في هذِه القصة: أنَّ العبد لا يغتر بالنعم، لا تغتر بالنعم، وإن تكاثرت وزادت، ولا تنس نصيبك من الآخرة بسبب وجود هذِه النعم؛ لأنَّ الإنسان في بعض الأحيان عند المكاره يصبر؛ لأنه ينكسر فيرجع إِلَى الله، لكن عند النعم يطغى فينسى الله، فإذا نسي العبد ربه؛ أنساه الله نفسه فضاع، خسر الدنيا والآخرة؛ إذًا عند النعم احذر أن تغتر، وعند المصائب والنقم احذر من الجزع، والإنسان المؤمن مطمئنٌ معتدلٌ في جميع أحواله.

أيضًا من القيم المهمة -حَفِظَكُمُ اللهُ-: الصِّدْق،

الإنسان يحتاج إلَى الصِّدْق في جميع مواقفه، إذا كان الإنسان يظن أنَّ الكذب سينجيه؛ فإنَّها وإن كانت نجاة؛ فإنها قصيرة، نجاة مقرونة بالخذلان والفضيحة، مهما كان، أما الصِّدْق فهو منجاة؛ لذلك قَالَ الملك للأقرع والأبرص: «إن كنت كاذبًا صيّرك الله إلَى ما كنت» بعد أمدٍ طويلٍ، فالكذب أرداه، وَالصِّدْق مع الأعمى نجَّاه، فكن مع الله صادقًا دومًا وأبدًا، مهما كانت المواقف، ومهما كانت الابتلاءات، وإن كنت تظن أنَّ الصِّدْق في ذلك الموقف قد يرديك؛ فاعلم أنَّ فيه نجاتك، وأنه بِإِذْنِ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينجيك.

أيضًا -حَفِظَكُمُ اللهُ- من القيم المهمة في هذِه القصة -وَهذِه القصة لها فوائد كثيرة جدًّا، لكن من القيم المهمة-: أن تعلم أنَّك في يومٍ من الأيام كنت عَلَى حالٍ وغيَّر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليك الحال، من حال إلَى حالٍ أحسن، فلا تنسَ تلك الحال، ولا تنسَ النَّاس الَّذِينَ كانوا في تلك الحال: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]، ما منَّا اليوم إلَّا وقد كان فقيرًا فأغناه الله، أو مريضًا فشفاه الله، أو مهمومًا ففرَّج عنه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فلا تنسَ الفقير، ولا تنسَ المسكين، ولا تنسَ المهموم، ولا تنسَ المغموم، وإذا أتاك واحد منهم مكسورًا متألِّمًا، فلا ترده خائبًا، إذا ما استطعت أن تعطيه، ما استطعت أن تكرمه، ما استطعت؛ فلا أقل من كلمة طيبة ووجهٍ بشوش، فوالله إنَّ صدقات السر والإحسان والمعروف يقي الإنسان مصارع السوء، ويقي الإنسان الابتلاءات.

والجزاء -أحبتي حَفِظَكُمُ اللهُ- دائمًا من جنس العمل، كما تفعل سيُفعل بك، وكما تعطي سيعطيك الله

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، من فرَّج عن مؤمنٍ؛ فرَّج الله عنه، من نفَّس عن مؤمن نفَّس الله عنه، من ستر عَلَى مسلمٍ؛ ستر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عليه، فضعها قاعدة في قلبك دائمًا: ﴿كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٩٤]، فاشكر نعمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأدِم شكرها، وأنفقها فيما يحبه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويرضى.

نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يديم علينا وعليكم النعم والأمن والسلامة والسلام والعافية، وأسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يحفظ ولاة أمرنا، وقيادتنا الرشيدة، وأن يبارك في دولتنا، وفي جهود إخواننا من المواطنين، نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يغفر ذنوبنا، وأن يبلغنا وَإِيَّاكُمْ كل خير.